

المصير المصير؟

بقلم الدكتور اسماعيل صبري عبدالرسول

ردود الافعال تلك غنى لشعوبنا . اذ لا غنى لاي شعب يواجه ما نواجهه من امتحان الا في التفكير الهادئ والحساب الدقيق . وهذا ما لا يتأتى الا بمعرفة بالواقع شاملة وكافية . ولكن الفرق بين الثوريين و« الواقعيين » في هذا المجال يكمن في ان تلك المعرفة تنتهي بالآخرين الى الاستسلام للواقع ، في حين انها في نظر الاولين ضرورة بالدقة لتجاوز الواقع بفاعلية ونضال بدل الفرار منه تعلقا بالخيال . ومن الناحية الاخرى ، لا شك ان الحماسة ذخر للمقاتل لا تعادله ذخيرة ، والوطنية المشبوبة درع واقية من سهام الاستعمار الجديد ، ولكن التحليل العلمي « على البارد » هو وحده الذي يهدي الى سبل النصر .

وهذا التحليل العلمي المنشود من اصعب الامور . ولا ترجع صعوبته فقط الى ما يجيش بالنفوس من غيظ مكظوم والم مضطرم وسخط متقد . بل ترجع كذلك الى اننا نواجه ظاهرة عدوانية بالغة التعقيد تشابكت عندها عوامل متعددة ، وتراكت حولها عبر السنين احداث ذات اثار متنوعة ، ومن ثم لا يمكن ان نملك لها حلا فردا بسيطا وواضحا . ان مواجهة الظاهرة الصهيونية الامبريالية في فلسطين والوطن العربي لا بد بالضرورة ان تمتد افقيا من حيث التنوع الموضوعي في الاساليب والوسائل ، ورأسيا من حيث الامل التاريخي . والسؤال: الى اين المصير ؟ يجب ان يسبقه سؤال اخر : ما هو المصير ؟ ما ظهر منه وما استتر .

النظرة الجزئية خطأ وخطر

فمنذ ان حلت بالوطن العربي نكبة الصهيونية سادت في بلادنا في اوقات مختلفة ، وتعاصرت احيانا ، نظرات الى الظاهرة الصهيونية الامبريالية تركز على جانب واحد منها ، وحيانا تتوهم فهم احد الجوانب ، وتهمل بقية حقائقها المعقدة . ولا بد من الخلاص من تلك النظرات ومن الفكرية التي تعبر عنها . وكلما تخلصنا من واحدة منها رفعنا عن البصر غشاوة حتى يصبح حديدا لا يخطئ الروية .

واكثر تلك النظرات فجاجة هي **النظرة العنصرية** التي قوامها ان اليهود عنصر شرير يدبر باستمرار لافساد البشرية والسيطرة عليها مستغلا المال والجنس ، يسيطر في الخفاء حتى يتمكن فيسيطر في العلن . وتستند تلك النظرة الى ما يسمى « بروتوكولات حكماء صهيون » ، وتستمد الكثير من الحجج من مستنقع النازية . وهذه

عرفت الثورة العربية خلال السنوات العشر الاخيرة حركة مد وجزر متعاقبين . وقد عرفت القوى الثورية قبلنا المد والجزر . ولسنا نقول هذا تبريرا لاطعاء ، او تعزية حيث لا عزاء . فليس حتما مقضيا على كل ثورة ان تعرف على التوالي التقدم والتراجع . وانما نحاول ان نضع الساعة الراهنة موضعها الصحيح من سلسلة الزمن المعاصر حتى لا يلهينا حدث على فداحته عن ادراك حركة الاحداث في جوهرها . ان الثورة العربية باعابها الثلاثة : التحرري ، والتقدمي ، والوحدوي قد احرزت نجاحات مؤكدة على رأسها استقلال الجزائر وثورة اليمن الشمالي ثم الجنوبي ، واجراءات التحرر الاقتصادي والتحول الاجتماعي في عدد من الاقطار العربية ، واتضح المحتوى التحرري والتقدمي الضروري لفكرة الوحدة العربية . وقد تعثرت الثورة في مواقع كثيرة لاسباب متعددة في مقدمتها تفرق القوى الثورية والتقدمية والصراع العنيف بينهما . ولكن الجزر الاعظم الذي واجهته حركة التحرر العربي هو يقينا هزيمة ١٩٦٧ . نعم لقد كانت تلك الهزيمة بانثارها العميقة ، وابعادها الرهيبة ، وبوقوعها ثالثة بعد ١٩٥٦ و ١٩٤٨ اعنى ما اصاب الامة العربية في العصر الحديث : اقتطاعا من الجسد ، وهوانا للعة ، وامتحانا عسيرا للعقل والارادة .

واذا كان رد الفعل المباشر والتلقائي للجماهير العربية قد جاء رائعا وملهما ، رفض للهزيمة ، وصمود في وجه العدوان ، واصرار على النضال حتى النصر ، فان ردود الفعل في دوائر الحكم والسياسة واوساط المثقفين وطلائع الشباب لم تكن دائما في مستوى الاحداث . لقد انتاب البعض بليلة فكرية هائلة دعتهم الى اعادة النظر في كل شيء ، والشك في كل شيء . واشربت روح الهزيمة والاستسلام تتشقى بالقوى الثورية وما اصابها وتشيع باسم التعقل والاعتدال والواقعية الدعوة الى التسليم للاستعمار الجديد والتماس الامن في ظل عصا الامبريالية الاميركية الفليظة واداء ما تقتضيه تلك الحماية من اتاوة في شكل التخلي عن اماننا العراض في الحرية والاشتراكية والوحدة . وفي الطرف الاخر وقف ثوريون شرفاء تقطر وطنيتهم مرارة واسى ، يكاد القنوط ان يملك عليهم نفوسهم ويحملهم الى المطالبة بالمغامرة بأي شيء كمن يشتهي غسل عار الهزيمة ، وسقي فولاذ الارادة ، والتطهر من اخطاء وصلت احيانا الى حضيض الخطيئة في نثار حرب تحقق ذلك كله أو لا تبقي على شيء . . وليس في

الى اليونانية (الترجمة السبعينية) . والتسليم بهذه النظرة العنصرية يطمس نهائياً دور الاستعمار في انشاء اسرائيل ودعمها . ومن المعروف انه لولا بريطانيا لما وجد الوطن القومي ولا نشأت اسرائيل ، ولولا سلاح فرنسا واموال وسلاح المانيا الغربية ، واموال وسلاح ونفوذ الولايات المتحدة لما اصبحت اسرائيل ما هي عليه اليوم . ولكن اخطر ما في النظرة العنصرية هي انها تسليم كامل بوجهة نظر العدو الصهيوني نفسه ، فالصهيونية تقوم على فكرة ان اليهود عنصر متميز بين سائر البشر . حقا انها تعتبره العنصر الممتاز ، اما اعتباره على العكس العنصر المنحط فانه لا يغير من التسليم بأنه عنصر متميز على كل حال .

وثمة نظرة اخرى ، على جانب كبير من الصواب ، ولكنها تخطيء حين تصاغ في اطلاق يهمل حقائق اخرى ، واعني بها نظرية **اسرائيل اداة الاستعمار** . ولها ولا شك فضل القاء الاضواء على دور الاستعمار في نشأة اسرائيل ودعمها ، وعلى دور اسرائيل في خدمة الاستعمار . ولكنها تهمل دور الصهيونية كحركة استعمارية لها مكانها المتميز داخل اطار الاستعمار العالمي . فاسرائيل ليست مجرد قاعدة عسكرية تابعة لاميركا مثل جواتانامو في كوبا . ومهما يكن من مدى اعتمادها على الغرب بصفة عامة وعلى اميركا بصفة خاصة ، فانها تستند الى حركة صهيونية منظمة تنتشر في بلاد كثيرة ، يقودها احتكاريون كبار ، وتملك من وسائل التأثير ما بدا واضحا مثلا في الانقسام الكامل بين سياسة ديفول وبين موقف الصحافة الفرنسية . او حتى الاذاعة والتلفزيون بالرغم من تبعيتهما للدولة . كما انها تتجاهل حقيقة وجود مجتمع اسرائيلي يتجاوز المليونين عدا له صراعاته ، وبه طبقة مهيمنة ، وايدولوجية توسعية ، وقدرات عسكرية ، تجعل اسرائيل اقرب الى الشريك الصغير للدول الامبريالية ، منها الى مجرد الاداة معدومة الاطماع الذاتية . فالى جانب دور اسرائيل كاداة للاستعمار ، توجد اسرائيل كدولة استعمارية . بل انها بقدر نجاحها في دورها في خدمة المصالح الاستعمارية للدول الكبرى تؤكد وجودها المستقل وتفرض مطالبها الخاصة .

وخلال كتابات ما بعد نكسة ١٩٦٧ ظهر شيئا فشيئا ان جوهر الظاهرة الصهيونية الامبريالية هو ان الدولة الصهيونية امتداد عنصري للغرب الاستعماري في قلب الوطن العربي . انها اخر محاولات **الاستعمار الاستيطاني** التي قام بها الغرب ، والتي اتخذت دائما شكل هجرة بعض مئات الالوف من الاوروبيين الى ارض اجنبية يسيطرون عليها وينشئون منها دولة غريبة « فيما وراء البحار » ، كما كان يقال بلغة القرن الماضي . ولكن حقيقة اسرائيل كاستعمار استيطاني لا ينبغي ان نقودنا فورا الى القياس باحداث الجزائر . فالستوطنون في اسرائيل قدموا من بلدان شتى ، وبالتالي ليس لهم « وطن ام »

النظرية تتناقض تماما مع قيم الحضارة العربية التي قامت وازدهرت تحت شعار « لا فضل لعربي على عجمي الا بالقوى » والتي رفضت بصفة عامة المفاهيم العنصرية . ان العرب لم يروا في « اليهودية » « عنصرا » وانما رأوا فيها دينا من الاديان السماوية ، لمن يعتنقه ضمانات وفرها الاسلام . لقد عاد اليهود الى القدس بعد ان طردهم منها الامبراطور طيطس بحوالي ستة قرون بعد ان حررها العرب من حكم بيزنطة . وحين احتل الصليبيون المدينة المقدسة ، اعملوا التدييح في المسلمين والمسيحيين وطردها منها اليهود . ولما حررها صلاح الدين عاد اهلها من اليهود اليها خلف جيش البطل العربي الكبير . وفي الوقت الذي كانت فيه أوروبا في العصور الوسطى تحاصر اليهود في احياء لا يخرجون منها وتفرض عليهم صنوفا من الاضطهاد كان الفكر اليهودي يزدهر في بلاد العرب . وتنمو الفلسفة اليهودية مقتفية اثر الفلسفة الاسلامية ، على منهج المتكلمين اولاً ثم متأثرة بفلاسفة الاسلام الكبار . واكثر الاسماء في تاريخ الفلسفة اليهودية حتى العصر الحديث كانت بلا ادنى شك اسماء موسى بن ميمون تلميذ ابن رشد وطبيب صلاح الدين ، ويوسف بن سعيد الفيومي المشهور عند اليهود باسم سعديا . ان الفكر العنصري ظهر وتأكد وانتشر في أوروبا ، ليس ضد اليهود وحدهم ، وانما كسلاح ايديولوجي في خدمة السيطرة الاوروبية . فمواطن روما سيد غير منازع في كل انحاء الامبراطورية . و« السلام الروماني » معناه خضوع الامم لسيطرة روما لتعيش في سلام تفرضه جيوشها ، تماما كما يتصور القوم في واشنطن اليوم « السلام الاميركي » . والاسامية ليست الا احد مظاهر ذلك الاتجاه العنصري الاصيل الذي يتمثل في الموقف من السود ، او من الصفر ، او من شعوب العالم الثالث كلها . والتسليم بمعاداة السامية مطبقة على اليهود يسقط كل حجة في تطبيقها على العرب . ذلك اننا بمنطق العنصرية ساميون كاليهود تماما . ان تقاليدنا الحضارية رفضت هذا الفكر . وعاش اليهود بيننا يعانون ما يعاني مجتمعا ويتمتعون بما يصيب من تقدم . واللغة دائما شاهد حضاري لا يكذب . لقد تكلم يهود البلاد العربية لغة العرب . في حين ان الاضطهاد حملهم في أوروبا على ان يستخدموا لغات خاصة بهم . ومن المعروف في علم اللغة ، ان اللغات الخاصة تنشأ من احتياج الجماعات المضطهدة الى استخدام لغة لا يعرفها مضطهدوها . وهكذا نشأت « اليدش » و « اللادينو » . وليست اي منهما تعبيراً عن حفاظ على لغة قومية . فالاولى وهي لغة الاشكناز مشتقة من الالمانية (وكلمة اشكناز نفسها تعني المانيا) والثانية وهي لغة السفاراديم مشتقة من الاسبانية (وسفراد تعني اسبانيا) . واليهود قد فقدوا ارتباطهم بالعبرية منذ قرون عديدة . ففي القرن الثاني الميلادي كان يهود مصر عاجزين عن قراءة التوراة ، مما حمل بطليموس على تكليف عدد من الاحبار بترجمته

حين نمت الرأسمالية في أوروبا الغربية على مستوى المجتمع كله اختفت المشكلة اليهودية ، لان أوروبا الغربية غدت - كما قال ماركس - كلها يهودية ، اي رأسمالية . ومهما يكن من امر ، فان ما يستحق الاهتمام هو ان اليهود المضطهدين ، كانوا يهاجرون قبل قيام الحركة الصهيونية ، كغيرهم ممن تضيق بهم اسباب الحياة في أوروبا فسي القرن التاسع عشر ، ضمن تيارات الهجرة الأوروبية الاساسية : الى العالم الجديد ثم الى استراليا ونيوزيلاندا (١) . الخ . ولكن الصهيونية حاولت منذ البداية تغيير هذا الاتجاه . وينبغي ان نبه هنا الى ان الصهيونية في البداية لم تكن تصر على فلسطين بالذات ، وإنما كانت تحاول اقامة دولتها ايضا في سوريا . بل ان هرتزل زار مصر سنة ١٩٠٤ ليفاوض الانجليز والخبديوي في تنفيذ المشروع في شبه جزيرة سيناء . ومم ثم يتضح ان القضية لم تكن في المحل الاول « ايماننا بالوعد الالهي في ارض كنعان » وإنما كانت رغبة من الصهيونية كقوة استعمارية متميزة في المشاركة في اقتسام تركة الرجل المريض . كانت الصهيونية تحاول وسط السباق الامبريالي المحموم حول اشلاء امبراطورية آل عثمان ان تفتتح لنفسها نصيبا . وكان ذلك في منطق العصر . وقد حدد هرتزل الامور

(١) والدليل على ذلك هو عدد اليهود في الولايات المتحدة الاميركية ، وهو يقارب نصف عدد اليهود في العالم كله .

يفكرون في العودة اليه جميعا اذا ضاقت بهم سبل الحياة في فلسطين . ولهذا فالشعور السائد بينهم هو انه هم يقاتلون وظهرهم الى البحر . ان المستوطن الاوروبي في الجزائر كان من الناحية القانونية فرنسيا يعيش في الجزائر . اما المستوطن الاسرائيلي فليس له جنسية اخرى . وبالتالي عليهم ان يستميتوا من اجل البقاء . ومن ناحية اخرى ، قدم عدد كبير من هؤلاء المستوطنين من البلاد العربية . وليس خافيا ان السياسة الخاطئة التي عمدت اليها بعض الحكومات العربية في تشجيع اليهود على مغادرتها نهائيا قد لعبت دورا حاسما في الدعم البشري لاسرائيل . ففي الخمسينات كانت موجة الفرار من أوروبا قد انحسرت بعد انهيار النازية واستقرار الاوضاع في شرقي القارة . ولولا يهود اليمين ويهود العراق ثم يهود المغرب لما زاد عدد المهاجرين الى اسرائيل على النحو الذي تم به . ومهما يكن من امر ، فهذا الفريق من المستوطنين ليس اوروبيا ولا يفكر في العودة الى أوروبا . ومن ناحية ثالثة ، نشأ في اسرائيل جيل جديد « السابرا » ولديها وسط دعاية ايديولوجية مركزة تفهمه ان تلك هي ارضه وارض آبائه ولا يعرف لنفسه وطنا اخر . واخيرا ، لم ينتشر المستوطنون داخل بلد اغلبية سكانه من قومية اخرى ، كما كانت الحال في الجزائر . بل فرضوا لوجودهم مرحليا حدودا لهم فيها الاغلبية الواضحة ، وزاوجوا بين التوسع الاقليمي وطرد السكان العرب بغية ان تكون لهم الارض خالصة . وكل تلك امور تعقد ظاهرة الاستيطان الاسرائيلي . ويتعين دائما اخذها في الحسبان .

الخطط الصهيونية : ابعاده ووسائله

حقا ان اسرائيل في الجوهر مشروع استعمار استيطاني اوروبي اقامته الصهيونية العالمية . فالهجرة الى فلسطين ظلت الى ما بعد قيام دولة اسرائيل ، اوروبية خالصة . ولم يهاجر يهود الشرق الى « ارض الميعاد » الا على اثر المشكلات التي خلفها في البلاد العربية قيام تلك الدولة وولاء بعضهم لها على حساب الوطن الذي نشأوا فيه ، وسياسة الحكومات العربية الرجعية التي ساعدت على هجرتهم . وهذا امر مفهوم تماما . فاوروبا هي موطن اضطهاد اليهود الذي كان « روتيننا » عاديا طوال العصور الوسطى وحتى الثورة الفرنسية ، والذي اشتدت وطأته في شرقي أوروبا حيث يكثر عدد اليهود حيث تخلفت الثورة البورجوازية . وليس هنا مجال البحث المستفيض حول ظاهرة اللاسامية في أوروبا . ولكن التعصب العنصري يحكمه ، كما يقول مكسيم رودنسون ، قانون اساسي ، وهو انه يشتد كلما التقت الفوارق العنصرية - حقيقية كانت او مدعاة - مع فوارق اقتصادية . وقد احترف اليهود في العصور الوسطى تجارة المال والاقرض بالفائدة ، كانوا الرأسماليين في وسط مجتمع اقطاعي فحل بهم سخط الاقطاعيين ورقيق الارض في آن واحد . ولكن

مؤسسة نوفل للطباعة والنشر

و

((بيت الحكمة))

يقدمان

الحرب العالمية الثانية

للمؤرخ والصحفي الشهير

ريمون كارتييه

(في جزئين)

صدر حديثا

بأوجز عبارة ، حين كتب عام ١٩٠٨ يقول « ان دولة يهودية في فلسطين او سوريا ستكون امتدادا للحضارة الغربية وحصنا ضد الهمجية الشرقية » . وهكذا تحدد الطابع المزدوج لدولة اسرائيل قبل انشائها باربعين عاما : جزء من الغرب حضارة وسياسة ونهما استعماري ، ولكنه جزء متميز باتمائه الصهيوني وعدم ارتباطه بالتالي بدولة معينة من دول الغرب الاستعماري .

ولكن ثمة امرا اخر يميز تجربة الاستيطان الاسرائيلي عن الاستيطان الاوروبي في جنوب افريقيا او روديسيا مثلا . ذلك ان التوسع الاقليمي حتمية ملازمة للوجود الاسرائيلي نفسه . وليس التوسع مرهونا باحتمالات الهجرة المقبلة . وكثيرا ما يقول لنا المثقفون الاوروبيون انه لا ينتظر ان تستمر الهجرة الى اسرائيل بمعدلات مرتفعة نظرا لان الغالبية العظمى من يهود العالم موزعة حاليا بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة ، ويهود هاتين الدولتين لن يهاجروا الى اسرائيل ، وان اختلفت اسبابهم في ذلك . ولكن ما يفوت هؤلاء المثقفين حسني النية هو ان اسرائيل بعدد سكانها الحالي مدفوعة بالفعل نحو التوسع . فالاقليم الذي كانت تسيطر عليه الدولة الصهيونية حتى ١٩٦٧ كان عاجزا عن ان يوفر لسكانه مستوى معيشة يتناسب مع المستوى السائد في أوروبا التي هاجر منها الاسرائيليون . فثلثا الارض صحراء ، والثلث الاخير يعتمد في الري على مطر غير منظم والتربة لم يخصبها طمى . وجوف الارض فقير لا يحتوي على شيء يذكر من الثروات الطبيعية التي تصلح اساسا للصناعة . والسوق المحلية اضيق من ان تستوعب اي انتاج صناعي حديث . ولم تستطع اسرائيل الحياة والتقدم اقتصاديا حتى الا بفضل فيض مدهل من الاموال الاستعمارية لم يسبق له مثيل في اي بلد . فمن المعروف ان اسرائيل قد بدأت حياتها بعملية نهب واسعة النطاق لاموال العرب ، وانها تلقت من الغرب حتى سنة ١٩٦٥ ما يزيد عن سبعة الاف مليون دولار ، اي ما يساوي ٣٠٠٠ دولار لكل فرد من سكان اسرائيل . وكان اكثر من نصف هذا المبلغ غير محمل بأي التزام بالسداد لانه جاء في شكل هبات وتبرعات ومعونات وتعويضات . ولو حصلت الجمهورية العربية المتحدة على النسبة نفسها لكان معنى ذلك معونات تساوي تكاليف السد العالي اربعين مرة ! . وفي ضوء تلك الارقام يمكن تقويم تجربة النمو الاقتصادي في اسرائيل التي أصبحت اسطورة في الغرب وفي العالم الثالث . ويكفي أن نضيف هنا أن صادرات اسرائيل لا تغطي الا نصف قيمة وارداتها ، وان ثلث تلك الصادرات عبارة عن فاس مصنع ، أي انتاج صناعة لا أساس لها في البلاد نفسها . ولا يمكن بالطبع ان يستمر فيض الاموال متدفقا بالمعدل نفسه . ومع نهاية التعويضات الالمانية ظهرت معالم ازمة اقتصادية حادة ترتب عليها ان عدد العاطلين زاد في اسرائيل في اوائل سنة ١٩٦٧ عن المائة

الف ، أي حوالي ١٢٪ من القوى العاملة . ولكل هذا فان اسرائيل ليس امامها من خيار الا التوسع او الانهيار الاقتصادي والبشري . فامام البطالة وانخفاض مستوى المعيشة لا بد أن يهاجر من اسرائيل كل أولئك الذين يرفضون أن يعيشوا في مستوى اقل من الذي عرفوه في أوروبا . وسيكون أول المهاجرين بالطبع من الفيين والعلماء والخبراء الذين ترحب بهم أوروبا وأمريكا . أي أن الهجرة لن تكون تكديبا فقط للدعوى العودة ، وانما اضعافا لاسرائيل في أهم قواها الحيوية .

على أن التوسع الاقليمي له حدود ودونه مصاعب . فاسرائيل لا تتوسع في خلاء ، وانما في أرض تعيش عليها أمة ذات حضارة عريقة ، قد خسرت في تاريخها الطويل معارك كثيرة ، ولكنها كانت تنتصر في النهاية وتحافظ على وجودها وشخصيتها القومية . ومن ثم فان اسرائيل تسعى في الوقت نفسه الى السيطرة الاقتصادية على الشرق العربي . فالحلم الذي يردده حتى بعض أولئك الذين يتكلمون في اسرائيل عن السلام مع العرب هو تحقيق « التكامل الاقتصادي » للشرق العربي على أساس ان تكون اسرائيل قاعدته الصناعية وتكون الاقطار العربية مورد المواد الاولية وسوق تصريف المنتجات الصناعية . فالصناعة في اسرائيل في أمس الحاجة الى المواد الاولية التي تنتجها البلاد العربية تستثمر فيها خبراتها الفنية ورؤوس الاموال الاستعمارية الضخمة التي تستطيع تعبئتها . وسوق اسرائيل الداخلية كما قلنا ضيقة لا تستوعب انتاجا يذكر ، والمنافسة في الاسواق الاوروبية عسيرة ، ومن ثم كان أمل اسرائيل هو أن تستوعب البلاد العربية انتاجها الصناعي . بل أكثر من ذلك يمكن أن تصبح اسرائيل بمثابة « كنتوار » للاحتكارات العالمية تقيم فيها مصانع للتجميع والتكيب والتجهيز للكثير من منتجاتها التي تبيعها بالفعل في الاسواق العربية . ولا شك ان للبترول مكانة خاصة في خطط اسرائيل . فالصهيونية العالمية تريد أن تكون شريكا في استغلال البترول العربي ، وأن تكون اسرائيل قاعدة لتصديره ومركزا لتصنيعه تستقر فيه صناعة بتروكيميائية ضخمة تغطي احتياجات المنطقة كلها . وبعبارة أخرى تعرض علينا اسرائيل كأساس للسلام والوثام « الميثاق الاستعماري » ، Pacte Colonial الذي فرضه الاستعمار على كل المستعمرات . والخلاف في اسرائيل بين المتطرفين والمعتدلين ليس خلافا حول الهدف ، وانما حول الوسائل . فالمتطرفون يريدون فرض الميثاق الاستعماري بالقوة ، بأساليب الاستعمار القديم . أما المعتدلون فيرون أن هذا الاسلوب يجافي روح العصر ومن ثم لا بد من الاعتماد على أساليب الاستعمار الجديد . ومن المعروف أن هذه الاخيرة تقوم على الروابط الاقتصادية التي تفرضها الدولة الاستعمارية عن طريق التسلسل الى اقتصاد البلاد وتنمية فئات اجتماعية موالية لها وبث

الى أين المصير

- تمة المنشور على الصفحة ٥ -

الوطن الذي يعيش فيه . وتكتفي الصهيونية عادة بهذا القدر الأدنى من العطف على أهدافها . ولكنها أحيانا تطرح القضية على أساس عمق فتزعم أن اليهود يشكلون قومية متميزة لان النظرة العنصرية الخالصة غير مقبولة من الرأي العام العالمي . والواقع أن دعوى القومية اليهودية المتميزة ليس لها أي سند واقعي أو علمي فليس بين « الفلاشة » في الحبشة « وبني اسرائيل » في الهند من ناحية ، ويهود باريس أو نيويورك من ناحية أخرى أدنى صلة قومية مشتركة من تعايش أو لغة أو تراث فكري وحضاري . وربما كانت الحالة الوحيدة التي تستدعي النظر هي حالة يهود روسيا القيصرية وشرقي أوروبا الذين كانوا يعيشون في تجمعات كبيرة في مناطق متقاربة ، وكانت لهم لغة خاصة هي « اليدش » عاشت عدة قرون وازدهرت كلفة ثقافة . وكان من المتصور أن يكون هؤلاء نواة قومية مستقلة . ولكن الصهيونية العالمية ناضلت بغير هوادة لتتقضي على هذه الظاهرة وكافحت لاحياء لغة ميتة هي العبرية ولتقتل لغة حية هي اليدش . فكما حاربت الصهيونية العالمية اندماج اليهود في المجتمعات التي يعيشون فيها ، حاربت تطور وضع جماعات منهم الى قومية متميزة لان مثل هذا التطور كان من شأنه أن يهدم الفكر العنصري من أساسه . ومهما يكن من الامر ، فان الاساس العنصري سلاح في يد الصهيونية لتعبئة اليهود في كل مكان لمساندة دولة اسرائيل . والصهاينة لا يكتفون بالتعاطف الطبيعي لدى اليهود بل يلجأون لاشكال ابتزاز سافرة ويفرضون على كثير من اليهود تأييد اسرائيل فرضا بوسائل تصل الى حد التهديد بحرق المتجر وتضمن بالطبع المقاطعة الاقتصادية . ومن ثم فان اليهود الذين يعارضون الصهيونية يواجهون بالفعل مصاعب جمة ويستحقون التقدير لشجاعتهم . ويبقى بعد ذلك ان تأييد « الدياسبورا » عنصر أساسي في دعم اسرائيل يأتي مباشرة في المرتبة التالية للتأييد الاستعماري .

كذلك تستغل الصهيونية الدين أسوأ استغلال .

ويبدأ ذلك بمحاولة تأسيس الدعوة لانشاء اسرائيل ، ثم لتبرير وجودها ، بالحديث عن الوعد الالهي لبني اسرائيل بأرض كنعان . فحيث لا يقبل المنطق الحديث عن العودة الى أرض كان يسكنها يهود قبل ألفي عام ، تخاطب الصهيونية العاطفة الدينية لتؤكد لليهود أنه لا بد من « العودة » . ويؤكد طابع استغلال الدين أن عددا من كبار قادة الصهيونية لا دينيون ، وانما هم يستخدمون الدين عن وعي كاسلوب لتعبئة بعض الجماهير . كما يؤكد ذلك أيضا معارضة بعض اليهود لدولة اسرائيل على أساس ديني ، باعتبار أنه لم يسبق قيامها ظهور المسيح . ولا يقف استغلال الدين عند هذا الحد . فالصهيونيون المتعصبون يجدون في التوراة نصوصا تبرر كل جرائمهم . فاقامة دولتهم في وطن الفير ، أمر طبيعي ، لان « يهو » وعد بني اسرائيل بأرض كنعان ، أي بأرض مملوكة لغيرهم ، وقادهم « الى مدن عظيمة لم تبناها ، وبيوت مملوءة كل خير لم نملأها ، وآبار محفورة لم تحفرها ، وكروم زيتون

الفرقة والشقاق على أسس قومية او اقليمية او قبلية . الخ . ولهذا فان المقاطعة العربية لاسرائيل ، ورفض الاعتراف بها والاصرار على عدم التسليم بالامر الواقع ليست مجرد موقف غضب للكرامة المهذرة والحق السليب فحسب ولكنها وسائل فعالة في مقاومة المخطط الصهيوني، بل انها كانت أنجح ما استخدم العرب من وسائل حتى الآن .

فالصهيونية العالمية تريد اذن ، في التحليل الاخير اقامة نوع من الدولة الاستعمارية تسيطر على المنطقة كلها اقتصاديا على الاقل كشريك صغير للامبريالية العالمية ، تخدمها وتستفيد منها . وككل مشروع للاستعمار الاستيطاني ، لا بد للمخطط الصهيوني من ايدولوجية تضمن تحمس القائمين به لتنفيذه ، وتحاول تبريره أمام الرأي العام العالمي . فالغزو الاوروبي للشرق العربي في القرون الوسطى تستر وراء الصليب . وكذلك فعل « الكونكويستادور » حين دمروا حضارة الانكا والازتك في أمريكا الجنوبية والوسطى . وفي شمالي أمريكا كان أولئك الذين غادروا أوروبا في القرن التاسع عشر لبنوا في العالم الجديد مجتمعا أفضل لا يتورعون باسم هذا المجتمع عن القضاء على الهنود الحمر . وغزا الاستعمار الاوروبي أفريقيا تحت شعار نشر المدنية . . . الخ .

وأول سلاح في الترسانة الايدولوجية للصهيونية هو **العنصرية** . ونحن في الشرق العربي ألفنا دائما أن ننظر الى اليهودية كدين ، كأحد الاديان السماوية الكبرى التي تمتع معتنقوها بوضع خاص في دولة الاسلام . ولهذا يصعب علينا أن نتصور تميز اليهودي بشيء آخر غير الدين . أما في أوروبا فان الواقع التاريخي لاضطهاد اليهود ، وعزلهم عن المجتمع ، والزامهم بالمعيشة مجتمعيين بعيدا عن بقية البشر ، أبقى الى امد بعيد عناصر تمييز للاقليات اليهودية واحساسا بهذا التمييز عند الاغلبية المسيحية . وقد نجحت الثورة البورجوازية الديمقراطية في تصفية هذا الوضع الى حد بعيد في أوروبا الغربية . ولكن تخلف الثورة في شرق أوروبا ، حيث تجمع تاريخيا العدد الاكبر من يهود أوروبا ، حال دون تحقيق مثل هذا الاندماج . ولذلك تأكد التمايز اليهودي . وكان يمكن أن يؤدي انتصار الثورة الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي الى تصفية هذا الوضع الشاذ . ولكن محاربة الصهيونية العالمية لاندماج اليهود في المجتمعات التي يعيشون فيها من جهة وتجدد الاضطهاد العنصري على يد النازية من جهة أخرى أعادت طرح المشكلة اليهودية برمتها وبأعنف صورها على الضمير الاوروبي . ومن ثم اصبح عدد كبير من الناس الشرفاء يعطفون على رغبة اليهود في أن يكون لهم موطن يلجأ اليه من يحس منهم بأنه لا يستطيع الاندماج في

لم تفرسها ، وأكلت وشبعت)) (تثنية : ٦ - ١١ ، ١٢)
ليس في هذا تبرير للاستيلاء على دور العرب « وبياراتهم »
وأرضهم ؟ وحين يقومون بطرد العرب من فلسطين
يستشهدون بما جاء في سفر الخروج : « فاني أدفع الي
أيديكم سكان الارض فتنزحهم من أمامك . لا تقطع معهم
ولا مع آلهتهم عهدا لا يسكنوا في أرض لئلا يجعلواك
تخطيء)) (خروج : ٢٣ - ٢٢ ، ٢٣) . أما المطامع التوسعية
فسندها عندهم : « لنسلك أعلى هذه الارض من نهر مصر
الى النهر الكبير نهر الفرات)) (تكوين : ١٥ - ١٨) . ولا
غرابة بعد ذلك أن يكون جوهر سياسة اسرائيل ترك مشكلة
الحدود غير محسومة أبدا ، لانها لا تسلم الا بحدود
« اسرائيل الكبرى » من النيل الى الفرات . على ان
استغلال الدين لا يقتصر على التأثير على جماهير اليهود ،
وانما يمتد على يد الصهاينة الى بعض المسيحيين . فمن
المعروف أن المذهب البروتستانتي قد تميز بالدعوة الى
دراسة العهد القديم ، وتمثل أحكامه والتأثر بها . ومن ثم
تستغل الصهيونية هذه الاوضاع في استدرار عطف
البروتستانت على اسرائيل باعتبار أن قيامها واعادة بناء
الهيكل بشير بظهور السيد المسيح . وقد نجحت بالفعل
في زيادة العطف على اسرائيل في بريطانيا وأمريكا ، كما ان
مراجعة موقف الفاتيكان من مسؤولية اليهود عن صلب
المسيح تدخل في اطار التقريب من المذاهب المسيحية ،
فضلا عن التأثير المباشر للصهيونية على الكنيسة الكاثوليكية
نفسها .

واخيرا تستخدم الصهيونية السلاح الايديولوجي
التقليدي للاستعمار الا وهو « النفوق الاوروبي » . لقد
آمنت أوروبا وأمريكا الشمالية لعشرات السنين بأنها
موطن المدنية ، وأنها أرقى شعوب العالم ، وأن رسالتها
التاريخية هي تحضير البشرية . وما زالت في الغرب
دوائر ترى في تحرير السود والصفرة وزيادة عددهم خطرا
داهما يهدد المدنية الاوروبية وحضارة الانسان كلها ،
ويقدم الصهاينة اسرائيل للغرب على أنها جزء منه ، تتجسد
فيها حضارته في مواجهة العرب . ولهذا نجد القوى
اليمنية المتطرفة وأصحاب الاتجاهات الفاشية والعنصرية
في أوروبا وأمريكا تتبنى قضية اسرائيل ، وتقف الى
جوارها ضد العرب . بل اننا نجد النازيين السابقين
والجدد يتفانون في خدمة اسرائيل ومعاونتها والتجسس
لحسابها ، لا تكفيرا عن الجرم أو شعورا بعقدة الذنب كما
يقال في ألمانيا الغربية ، وإنما استمرارا في الموقف
العنصري الاصيل . لقد قالت النازية ان اليهود جرثومة
تهدد الحضارة الاوروبية لانهم ليسوا أوروبيين ، بل
ساميون أي شرقيون . وهجرتهم الى اسرائيل هي بالتالي
استجابة لمنطق النازية العنصري . ومعاونة النازيين لهم
تأكيد لتخليص أوروبا منهم واستخدامهم لهم في مواجهة
هبة الشرق العربي التحريرية . ان العنصرين يلتقون
دائما . وحكام روسيا القيصرية قد أيدوا هرتزل والدعوة
الصهيونية . وكبار القادة الصهيونيين كانوا على صلة

بهتلر وطفمته . وفيما وراء الدوائر المتعصبة والرجعية ،
تجد اسرائيل دائرة واسعة من العطف على فئات كثيرة
ليست بالضرورة ذات موقف رجعي في بلادها ، ولكنها قد
ترسب في ضميرها تفوق الغرب وتشجيع كل ما هو
أوروبي . والواقع أن مصائر اسرائيل بيد يهود أوروبا
هم أوروبيون قبل كل شيء ، يقيمون بالفعل دولة مصطنعة
هي امتداد لأوروبا في قلب الوطن العربي . وهذا ما يلقي
الضوء على رفض هؤلاء أن « يعيشوا كجزء من أهل
المنطقة » كما يحلم بعض مثقفي اليسار الاوروبي . أنهم
مستوطنون أوروبيون لهم عقلية المستوطن التي لا تتصور
العلاقة بأهل البلد الاصلية الا في صورة قهر وطرده وابداء
أو سيطرة واستغلال .

المخطط الاستعماري

ويلتقي المخطط الاستعماري ، في خطوطه الرئيسية ،
مع المخطط الصهيوني . فالغرب اقتسم تركة الرجل
المريض في نهاية الحرب العالمية الاولى . ولم يكن فرض
سيطرة الغرب على بلاد العرب أمرا سهلا . فقد اضطرت
بريطانيا في سبيل مد سلطانها على هذه المنطقة الى
الالتفاف من حول الثورة العربية ، وخداع قيادتها
الاقطاعية ، وتغذية الاتجاه الانفصالي في مصر ، وقبول
اقتسام الغنائم مع فرنسا . ومع ذلك فما كادت قدم
الاستعمار تستقر حتى اندلعت الثورة الوطنية في مصر
وسوريا والعراق ، ثم تجددت في المغرب العربي . ولهذا
كان طبيعيا أن يقتنع الاستعماريون ، وقد أجهزوا على
الرجل المريض بدعوة هرتزل ، وان يتيحوا للصهيونية
ارساء قاعدة للوجود الغربي في قلب الوطن العربي . وليس
من قبل المصادفة أن يعاصر وعد بلفور موافق ماكماهون
مع الشريف حسين ومعاودة سايكس - بيكو مع فرنسا .
وكانت هزيمة الفاشية العالمية نذيرا للاستعمار بتفجير
حركة التحرر الوطني في العالم الثالث كله . وكان طبيعيا
أن تدوي الثورة في أرض العرب التي لم تخمد نيرانها فيها
طوال فترة ما بين الحربين . وكان الاستعمار يدرك أنه
سيضطر الى تنازلات . وقد أرغمت فرنسا بالفعل على
الانسحاب من سوريا ولبنان وأطاح الشعب المصري
بمشروع صدقي - بيغن في حين أسقط الشعب العراقي
معاودة بيغن - جبر . وفي هذه الظروف أعلنت بريطانيا
تخليها عن الانتداب في فلسطين بعد ان مهدت السبيل
لقيام اسرائيل وبصفة خاصة بعد أن وفرت للوكالة
اليهودية جيشا حديثا مدربا ومسلحا هو الهاجاناه . وكان
مجرى الاحداث في الربع قرن الماضي في اتجاه المزيد من
الانتصارات لحركة التحرر العربي ، والتصفية لقواعد
الاستعمار في مصر والعراق والاردن والجزائر واليمن
الجنوبي . . . وهكذا بدت اسرائيل أكثر فأكثر التجسيد
الحق للوجود الاستعماري الغربي في وسط منطقة تعج
بالثورة الوطنية التي تفتحت أمامها آفاق التحول
الاشتراكي . وكان طبيعيا أن يحرس الغرب على الوجود
الاسرائيلي ويدعمه . فصدر سنة ١٩٥٠ التصريح الثلاثي

بضمان الاوضاع القائمة بين دول المنطقة . وتعاونت بريطانيا وفرنسا وألمانيا الغربية والولايات المتحدة على تزويد اسرائيل بكل ما تحتاج اليه في سخاء لا يكفي لفهمه نفوذ الصهيونية فيها ، وانما يفسره في الاساس احساس تلك الدول بأنها تدافع عن قضية تهمها ، وتصون مصالح للاستعمار الغربي أو « للعالم الحر » كما يقولون .

ولكن الوجود الاسرائيلي قد اثبت انه قادر على أداء خدمات جلية للاستعمار ، زادت من مساندة الاستعمار للدولة الصهيونية . فالكفاءة العسكرية التي تميزت بها اسرائيل أضفت بعدا جديدا على دورها في المنطقة . لقد رشحتها تلك الكفاءة لكي تكون **كلب الحراسة الشرس** الذي يحمي مصالح الاستعمار . ففي كل فترة مد لحركة الثورة العربية كانت اسرائيل تتحرك لتضرب وتوقف التقدم . فالحرب التي ولدت منها اسرائيل وتوسعت لم تكن تعني بالنسبة للعرب مجرد فقد معظم أرض فلسطين ، ولكنها كانت الفرصة المواتية للاستعمار والرجعية لضرب الحركة الوطنية واعتقال العناصر الثورية وإشاعة الارهاب بقصد فرض شكل جديد من أشكال الارتباط بالاستعمار . لقد كانت تلك الحرب نكسة كبرى للعمل الوطني كسرت موجة الثورة العارمة التي هزت أرجاء الوطن من قسطنطينة الى بغداد . وفي سنة ١٩٥٦ ثبتت الثورة الجزائرية اقدمها وبدأ الكفاح المسلح يأخذ طابع الحرب الشعبية الشاملة ، في حين كانت القاهرة تقود الحملة ضد حلف بغداد وتعلي راية الحياد الايجابي وتبدأ التحرر بتأميم قناة السويس . وعندئذ أطلق الاستعمار كلب الحراسة من عقاله وخلفه وحوله قوات بريطانية وفرنسية . وكان هدف العدوان هو ضرب الثورة في مصر واجبارها على الخضوع للضغط الاستعماري وتصفية ثورة الجزائر . في سنة ١٩٦٧ جاء العدوان الاسرائيلي بعد اخفاق محاولات الانقلاب في مصر وسورية ، وبعد الصمود المصري أمام الضغوط الامريكية ، وبعد معركة سورية مع الاحتكارات البترولية ، وبعد انتصار الثورة في جنوبي اليمن ودعمها في شماليه ، وبعد التقارب الواضح بين الدول العربية التقدمية . وهذا الدور الذي تلعبه اسرائيل يكسبها أهمية خاصة في نظر واشنطن . فأمرىكا التي تريد ان تقوم بدور الشرطي في حماية مصالح الاستعمار العالمي وضرب حركات التحرر تحلم بوجود عدد من الدول تعتمد على مساعدات أمريكا الاقتصادية والعسكرية والسياسية وتتولى عنها الصدام مع قوى التحرر . ولم تنجح هذه السياسة الا في اسرائيل . فهي الدولة الوحيدة التي ترحب بالمساعدات الامريكية وبغمرها العرفان بالجميل الامريكي . وبها نظام حكم قوي ومستقر ، ولها جيش ضخم يبدأ تدريبه من الطفولة وينشأ على العدوان وتمجيد العنف ويسعده ان يلعب دور « الانتكشارية » في خدمة الاستعمار . ان واشنطن مستعدة لدفع الثمن لمن يحمي مصالحها في البلاد العربية ، وفي مقدمتها البترول .

وفيما وراء المصالح المادية المموسة لهذه الدولة الاستعمارية أو تلك ، يلوح الهدف الاستراتيجي للغرب الاستعماري، **الا وهو الحيولة دون الثورة العربية ودون تحقيق وحدة الامة العربية في دولة متحررة ، ديمقراطية وتقدمية** . ان الغرب يرى في اسرائيل جزءا منه زرعه زرعاً في قلب الوطن العربي ليقسم الأرض العربية ، ويكون ركيزة أمامية تحد من انطلاق الثورة العربية وتستنزف الكثير من مواردها . ان الجبو الذي صاحب العدوان الاسرائيلي في الغرب كان جو « حرب صليبية » يعيد الى الازهان أيام برباروسة وقلب الاسد ولويس التاسع . اننا كثيرا ما ننسى حقيقة الصدام الحضاري بين الغرب والوطن العربي . ان دعاة الحضارة الغربية يرون أنها الحضارة الاسمى (او الحضارة الوحيدة الجديرة بهذا الاسم) ، ولدت في اليونان ، وانتصرت وانتشرت على يد الرومان ، ثم تفجرت ينابيعها من جديد بعد ظلمات العصور الوسطى في أوروبا الغربية ، ثم بلغت أوجها اليوم في الولايات المتحدة الامريكية . ولكن بلادنا هي التذيب الصارخ لهذا التبسيط العنصري لتاريخ الحضارة البشرية . لقد كان في وسع الغرب أن يتجاهل الصين والهند - على عراقة الحضارة فيهما - نظرا لبعدهما وتأثيرهما المحدود في تطور بقية البشرية . أما بلادنا فهي على الساحل المقابل من البحر المتوسط ، وفيها ولدت أقدم الحضارات على ضفاف النيل والفرات وفي شمالي سورية وجنوبي جزيرة

دار الفكر

للطباعة والنشر والتوزيع

١ - نظام الإسلام (العقيدة والعبادة)

للاستاذ محمد المبارك

٢ - المجتمع الانساني في ظل الاسلام

للشيخ محمد ابو زهرة

٣ - نظام الحكم في الاسلام

للدكتور محمد عبد الله العربي

٤ - مدى حرية الزوجين في الطلاق

في الشريعة الاسلامية (دراسة مقارنة)

للدكتور عبد الرحمن الصابوني

٥ - نظام الاسرة وحل مشكلاتها في ضوء الاسلام

للدكتور عبد الرحمن الصابوني

٦ - الوصايا الخالدة

جمع وتحقيق عبد البديع صقر

اطار مخططات الاستعمار الغربي ضد الوطن العربي ، ويشكل داخلها جزءا متميزا بأطماعه الخاصة وقدراته الذاتية .

وفي ضوء هذا الفهم ينكشف سراب الواقعية ، أيا كان اللون الذي تظهر به . فالعدوان على مطار بيروت وضع حدا ، أو ينبغي أن يضع حدا ، لكل تفكير « واقعي » مبني على أن حسن العلاقة بالدول الغربية ضمان لاي بلد عربي ضد العدوان الاسرائيلي . والدول العربية المنتجة للبتترول تقع في وهم خطير اذا ظنت ان مصالح الاستعمار البترولية تقيها ضد مطامع اسرائيل ، لان البترول نفسه هدف أساسي للصهيونية ، والاحتكارات العالمية للبتترول مفتوحة امام النفوذ الصهيوني ، والاحتكارات الامريكية بالذات يسعدها أن تركز عمليات التكرير والتصنيع في اسرائيل لتصدر لاوروبا منتجات بترولية بدل تصدير البترول الخام . كذلك يخطئ بعض المثقفين الذين تؤثر فيهم الدعاوى القائلة بأن سياسة العداء لاسرائيل مهدت الطريق لوثوب العسكريين الى السلطة في عدد من البلدان العربية ، والى اهدار الحريات الديمقراطية ، وتحميل الاقتصاد القومي بأعباء التسليح الجسيمة على حساب التنمية الاقتصادية . ذلك أننا لا نملك أن نسالم اسرائيل ، لان السلام الاسرائيلي كالسلام الاستعماري لا معنى له الا السيطرة من جانبها والخضوع المتزايد من جانبنا . وعشا يقال ان السياسة العربية تستعدي اسرائيل وتحملها على العدوان حملا بتهديدها المستمر لوجودها . فقد رأينا ان العدوان جزء من طبيعة هذا الكيان الصهيوني الاستعماري . وهنا يصدق كلام ماوتسي تونج حين يقول : « انك لا تستفز النمر ، لان النمر مستفز بطبعه » . ولهذا فلن يجدي شيئا ان نسلم بالامر الواقع ، ونقبل الوجود الصهيوني في جزء من أرض الوطن لندخل معه في نوع من المنافسة السلمية . ولا يجوز الاحتجاج هنا بمنطق التعايش السلمي في المجال الدولي ، لانه لا تعايش سلميا بين الاستعمار وضحاياه ، وانما التعايش السلمي والمنافسة السلمية تكون بين النظام الاشتراكي والنظام الرأسمالي المستقر كل منهما في عدد من الدول المستقلة ذات السيادة .

ومن ناحية أخرى ، لا بد من الاقرار بأن هذا الصدام الحضاري الذي نواجهه يفرض علينا نصلا طويلا وشاقا ، متشعبا في مجالاته ، متنوعا في أساليبه ، مريرا فيما يستوجب من توضيحات . فتصنيفة القاعدة الصهيونية الاستعمارية لا يمكن أن تتم بين يوم وليلة . أننا يجب الا نخدع أنفسنا عن الواقع المرير . بل يجب أن ندرك تماما أنه في حدود علاقات القوى الحالية في المنطقة لا يستطيع العرب سحق العسكرية الاسرائيلية ، حتى بدون تدخل مباشر من القوات الاستعمارية . وعشا نحاول أن ندور حول هذه الحقيقة برفع شعار الحرب الشعبية ، ذلك أن الحرب الشعبية في جوهرها حرب ثورية يخوضها شعب

العرب . وحين سيطرت اوروبا الرومانية على هذه المنطقة لم تستطع ان تغير من وجهها ، ولا أن تطمس حضارتها أو تصبغها بصبغة الرومان . بل ان المسيحية التي ظهرت في أرض فلسطين هي التي غزت الامبراطورية وقوضت دعائم حضارتها القائمة على السرق . وحين صادرت الدولة الرومانية دين الناصرة وبيت لحم لحسابها ، وحاولت استغلاله في دعم سيطرتها ، قاومها مسيحيو الشرق ، وفي مقدمتهم أقباط مصر . ثم ظهر الاسلام نورا وقوة فتحررت الارض ، وقامت دولة كبرى ذات حضارة زاهرة ، رفضت التعصب العنصري والديني ، وعرفت من التسامح ما لم يسبقها اليه أحد ، تمثلت ما سبقها من حضارات ، وأخرجت للبشرية اعلاما فسي الفكر والفلسفة والعلوم . وحين أخذ التفكك يدب في الدولة العربية الاسلامية ، سارعت اوروبا لفزوا الشرق العربي مستترة وراء الصليب . وغلب العرب في مواقع كثيرة ، ولكنهم نجحوا في النهاية في رد الصليبيين على أعقابهم مدحورين . ولم تنس اوروبا الهزيمة ولا فقدت الطمع . وحين دخل المارشال اللبني القدس في نهاية الحرب العالمية الاولى ، كانت أولى كلماته : « الآن قد وضعنا حدا للحروب الصليبية » . ان بلادنا كانت في العصر الحديث آخر بلاد وقعت في قبضة الاستعمار الغربي ، وكانت أول بلاد تمردت عليه وتخلصت منه . وهي من البلاد النادرة التي لم يستطع ان يغير من شخصيتها القومية ، أو يقتلع لغتها ، أو يضيع معالم حضارتها . ونجاح الثورة العربية يعني قيام دولة كبرى ، لها من عدد السكان واتساع الرقعة والموقع الجغرافي وغنى الموارد والتراث الحضاري ما يجعلها قادرة ، رغم ما تعاني من تخلف في الحاضر ، على ان تتبوأ في السياسة العالمية مركزا مرموقا ، وأن تقطع في طريق التقدم شوطا بعيدا في زمن قصير . وتجربة الصين الشعبية ، التي دخلت عصر الذرة بعد أقل من عشرين عاما من انتصار ثورتها ، دليل ساطع على القدرات الكامنة لدى الشعوب الكثيرة العدد العريقة الحضارة . والغرب الاستعماري يدرك هذا كله . ولذلك فهو لا يالو جهدا في التربص بحركة التحرر العربي ، ويستخدم كل ما تحتويه ترسانته من أسلحة الاستعمار قديمه وجديده ، لينال منها داخليا وخارجيا : يستنزف قواها ومواردها ، ويفرق صفوفها ، ويحاول النيل من عزيمتها . واسرائيل هي القطعة المختارة في لعبة الاستعمار الأثمة .

استراتيجية على مستوى الصدام الحضاري

وهكذا تتضح حقيقة التحدي المروع الذي تواجهه الامة العربية . فاسرائيل عدوان مستمر على الشعب العربي في فلسطين ، وهي حاليا عدوان على الشعوب العربية المجاورة لفلسطين ، وهي مستقبلا عدوان على كل الشعوب العربية في المشرق والمغرب على السواء (فمطامع اسرائيل الافريقية وخبرة فريق من سكانها بالمغرب العربي أمر معروف) ، وهذا كله يندرج في التحليل الأخير في

أفضل وجه تتيحه ظروف كل مرحلة ، وفي ضوء الهدف الاستراتيجي .
وكل ما نملكه الآن هو تحديد عناصر الاستراتيجية العربية . وفي اعتقادنا أنه يمكن تحديد أهم تلك العناصر على الوجه الآتي :

(١) المحاصرة ، أي محاصرة اسرائيل حتى تتم تصفية وضعها كقاعدة استعمارية صهيونية . فمحاصرة المنطقة الموبوءة أول اجراء وقائي تفرضه ضرورات حماية الوطن له . وكوبا لا تستطيع مرحليا تصفية قاعدة جوانتانامو ، ولذلك فهي تحاصرها . وهذا الحصار يقتضي قبل كل شيء رفض الاعتراف القانوني باسرائيل ، وعدم التسليم بشرعية وجودها ، وبالتالي عدم التفاوض معها . وليس في هذا ما يمكن أن يسمى سياسة النعمة . فنحن لا ننكر الوجود المادي لاسرائيل ، وموقفنا الفعلي منها هو موقف الاعتراف الواقعي الذي تمثل في توقيع اتفاقيات الهدنة وفي الجلوس معها في المحافل الدولية . ولكن الاعتراف القانوني معناه التسليم بشرعية العدوان . وهذا ما يجب أن نرفضه في اصرار . ولا يوجد في قواعد القانون الدولي ما يلزمنا به . ويجب أن نقاوم أي ضغط من أية جهة يرمي الى انتزاع هذا الاعتراف . وأول تطبيق عملي لفكرة الحصار هو **المقاطعة الاقتصادية** . وقد رأينا أن هدف اسرائيل هو في النهاية الاستعمار الاقتصادي

ضد جيش احتلال أجنبي أو جيش رجعي محلي . وهدفها في الحالة الاولى اقناع المحتل باستحالة الاستمرار في الاحتلال لان تكلفته باهظة تفوق بكثير كسل المزاي التي يحصل عليها المستعمر منه . وهذا بالدقة ما حدث في الجزائر فحمل حكومة ديغول على المفاوضة ثم الانسحاب . وهذا ما يحدث اليوم في فيتنام . فالنضال البطولي للشعب الفيتنامي لم يقذف بالامريكيين في المحيط ، ولكنه أثبت لهم استحالة استمرار العدوان وتحقيق اهدافه . أما في الحرب الاهلية ، فان الحرب الشعبية اما ان تفضي الى انهيار النظام الرجعي من الداخل ، واما أن تتحول الى حرب نظامية . وجيوش ماو التي وجهت الضربة القاضية الى تشانج كاي تشيك واحتلت بكين وكانتون وشنغهاي كانت جيوشا نظامية . اما اسرائيل فانها تمرکز قوتها الضاربة داخل حدود دولية معترف بها وفي اطار سيطرتها العديدة . وحتى اذا تخيلنا مواجهة عامة للاستعمار واسرائيل بحرب شعبية على نطاق الشرق العربي كله ، فان الاعداد لها وتوفير ظروفها داخل الدول العربية أمر يستغرق عدة سنوات ، كما أن الحرب الشعبية نفسها ليست حربا خاطفة وانما هي بطبيعتها سنوات قتال طويلة . ولكل ذلك فلا بد أن نتخلى عن نفاذ الصبر وقصر النفس وأن نهيء أنفسنا لنضال طويل ومرير . ولنا أن نتمثل تجربة العدو الصهيوني الذي رسم استراتيجية على مدى قرن ، فقد مرت اكثر من عشرين سنة بين تحديد الصهيونية لهدف اقامة دولة في اسرائيل وبين الحصول على وعد بلفور ، ومرت ثلاثون سنة بين الوعد المشئوم واقامة الدولة بالفعل . ولم يكن كل ذلك الا خطوة أولى .

وما دام الصراع طويلا ومريرا بهذا المدى فلا بد له من استراتيجية . لا يد له من تخطيط واضح لهدف ، طويل المدى ، يحكم كل المواقف التكتيكية . أما الهدف فيجب أن نتفق عليه ونوحد رأي غالبية العرب حوله ، وهو لا يمكن أن يكون الا : القضاء على القاعدة الصهيونية الاستعمارية . وليس في هذا الهدف بحال تصفية سكان اسرائيل عضويا ، أو القاؤهم في اليم أو اخضاعهم لاي تمييز عنصري أو قهر ثقافي من أي نوع . ولما كان هذا الهدف بعيدا ، فان من الطبيعي ألا نملك منذ الآن تحديد اشكال محددة وأساليب عملية يتحقق في اطارها ، وانما كل ذلك يتحدد عمليا حين تنضج الظروف لتحقيق الهدف وتحت تأثير تلك الظروف بالذات . لقد قبلت الثورة الجزائرية من اتفاقيات افيان بقاء المستوطنين الاوروبيين والاقرار لهم بالحق في اختيار الجنسية الجزائرية أو الاحتفاظ بالجنسية الفرنسية أو التمتع لمدة ثلاث سنوات بالجنسيتين معا . وبالرغم من ذلك غادر المستوطنون أرض المليون شهيد . ومهما يكن من امر فأننا نعتقد ان الصياغة التي نقدمها تكفي لتحديد هدف النضال العربي بالقدر الذي يسمح لنا باتخاذ المواقف التكتيكية والمرحلية على

تسعر

من منشورات دار الاداب

٢٥٠	للشاعر القروي	الاعاصر
٢٠٠	لفدوى طوفان	وجدتها
٢٠٠	» »	وحدى مع الايام
٢٥٠	» »	اعطنا حبا
٢٠٠	» »	امام الباب المغلق
٢٥٠	لاحمد ع. حجازي	لم يبق الا الاعتراف
٣٥٠	لابراهيم طوقان	ديوان ابراهيم
٢٠٠	لفواز عيد	في شمسي دوار
٢٠٠	لخالد الشواف	حذاء وغناء
٢٥٠	لصلاح عبد الصبور	احلام الفارس القديم
٢٥٠	لصلاح عبد الصبور	اقول لكم
٢٠٠	لصلاح عبد الصبور	الناس في بلادي
٣٠٠	لصلاح عبد الصبور	مأساة الحلاج
٢٠٠	لمعين بسيسو	فلسطين في القلب
٢٠٠	لحسن النجمي	كلمات فلسطينية
٣٠٠	للككتور خليل حاوي	بيادر الجوع
٢٥٠	لعبد الوهاب البياتي	سفر الفقر والثورة
٣٠٠	لابراهيم محمد نجا	الحياة الحب

للمنطقة . ومن ثم يجب أن نسد كل المنافذ أمام محاولات التسرب الاسرائيلية . ويلى ذلك أهمية التوعية بالخطر الصهيوني الاستعماري وضرورة الاستعداد لمواجهة احتمالات العدوان في أي لحظة .

٢) دور شعب فلسطين ، في النضال من أجل حقه المشروع في وطن مستقل . ان أهم ظاهرة ايجابية في فترة ما بعد هزيمة ١٩٦٧ هي بروز دور الشعب الفلسطيني نفسه . واسرائيل لا يمكن أن تستقر وأن يهدأ لها بال ، والشعب الذي طرده من أراضيه يطالب بحقه ويناضل من أجله . ولو نجحت الصهيونية والاستعمار في تصفية القضية الفلسطينية بأي شكل من الاشكال ، نكون قد خسرنا أهم معاركنا في هذا المجال . والمقاومة الفلسطينية ليست العمل الفدائي وحده . ان بطولة الفدائيين يجب ألا تلهينا عن أشكال المقاومة الأخرى . فالاضراب ، ورفض التعاون مع السلطات الاسرائيلية ، والمظاهرات الشعبية . . . الخ أساليب أساسية في المقاومة . بل ان مجرد البقاء في الارض والصمود لمحاولات الطرد تعد في مواجهة الاستعمار الاستيطاني سلاحا حاسما .

الفريقية ، في حين أن المستثمر الاساسي هو الولايات المتحدة الامريكية . ولهذا فلن يترتب على التأميم مقاطعة شاملة للبتروال العربي لا سيما اذا اقتصر التأميم على مصالح الدول التي تساند اسرائيل ؛ لانه سيكون من مصلحة أوروبا شراء البتروال من عندنا لان سعره أرخص من البتروال الامريكي ، ولانه يمكن دفع ثمنه بصادرات أوروبية الى بلادنا .

٤) بناء الوطن العربي اقتصاديا وسياسيا وعسكريا ،

فالتفوق العسكري الاسرائيلي محصلة درجة معينة من النمو الاقتصادي والتصنيع والتقدم التكنولوجي والتنظيم السياسي العصري . وهذا التطور غير ممكن الا في ظل التحرر من الاستعمار واختيار طريق التطور الاشتراكي والسعي الدؤوب لتحقيق الوحدة العربية . فنضالنا من أجل التنمية الاقتصادية ونشر التعليم وتحرير المجتمع والمواطن من الاستغلال ، وبناء الصناعة واقامة جيوش وطنية مسلحة بالوعي وليس فقط بالسلاح الحديث ضرورة حيوية في هذا النضال المصري .

٥) اليقظة والقدرة على الردع ، ولن تتركنا اسرائيل

والاستعمار نبني في هدوء ونستعد ليوم اللقاء الحاسم . بل لا بد عند كل تقدم حاسم نحزره من أن نتوقع عدوانا جديدا ايا كانت الدوافع والظروف . ومن ثم لا بد من اليقظة الدائمة ازاء مؤامرات الاستعمار والصهيونية . ولا بد أن تكون لدينا القدرة العسكرية على الردع . ان العدو لا يفهم الا منطق القوة . واذا كانت علاقات القوى لا تسمح لنا حاليا بسحق العسكرية الاسرائيلية فانه يجب ان نكون قادرين على مواجهة العدوان وردده ، وان نستطيع ان نهزم اسرائيل في بعض المعارك . لا بد من أن نضع حدا لمنطق القوة الذي تعيش به الصهيونية بين ظهرانينا . يجب ان نثبت لاسرائيل أنها لا تستطيع ان تفرض مشيئتها في أي وقت بقوة السلاح ، ونجعلها تدرك أن امامها خصما يتعين عليها أن تحسب له ألف حساب . وتندرج تصفية آثار عدوان ١٩٦٧ في هذا الإطار . فنجاح العرب في ارقام اسرائيل - بأية وسيلة - على العودة الى حدود ٤ يونيو ضربة مؤكدة لمنطق القوة وسياسة الارهاب . ان هذا النجاح يمكن أن يكون نقطة التحول الحاسمة في نضالنا كله .

٦) الرأي العام العالمي ، وعلينا ان نواجه الرأي العام

العالمي بهذا الموقف الواضح . ذلك أنه لا يمكن ان نتجاهل دوره في كل نضال عادل . ومن السداجة أن نقول فيما بيننا غير ما نعلن على العالم . لا بد أن تكون لنا لغة واحدة جوهرها الدفاع عن حقوقنا ضد مخططات الاستعمار والصهيونية بعيدا عن كل تعصب عنصري ، ومع النبهذ الكامل للدعوى القاء اليهود في البحر . . . وما الى ذلك من العبث الضار الذي ينافي تقاليدنا الحضارية .

٣) ضرب الاستعمار في أضعف مواقعه ، وما دما نسلم بالترابط الوثيق بين مخطط الصهيونية وخطط الاستعمار ، ندرك أن اسرائيل كلب الحراسة للمصالح الاستعمارية ، وأن الاستعمار يساندها من أجل ذلك بكل ما يملك من أسباب القوة ، فانه يفدو واضحا أن كل اضعاف لمراكز الاستعمار في المنطقة اضعاف لاسرائيل . ان تطور موقف فرنسا من اسرائيل لا يمكن فهمه في ضوء شخصية ديغول وحدها ، بل انه انعكاس لتطور علاقة فرنسا بالبلاد العربية . فحين كانت فرنسا تحتل الجزائر وتحتفظ بالقواعد العسكرية في تونس ومراكش شاركت اسرائيل في عدوان ١٩٥٦ . ولما تمت تصفية المواقع الاستعمارية الفرنسية في البلاد العربية فقدت اسرائيل الجزء الأكبر من أهميتها في نظر فرنسا ، وتغلبت عندئذ ضرورات المحافظة على علاقات طيبة ببلاد تضم قرابة المائة مليون نسمة وتمتع بموارد طبيعية ضخمة . ولنا ان نتوقع في المدى القريب تطورا مماثلا في سياسة بريطانيا ، وان كان لا بد من أن يحد منه ارتباط السياسة البريطانية باتجاهات واشنطن . وما دامت المعركة ضد الصهيونية وضد الاستعمار معركة واحدة ، فانه يتعين علينا ان نختر اضعف الحلقات ونبدأ بتوجيه الضربات اليها . ولا شك ان اسرائيل ليست أضعف الحلقات في هذه الجبهة . وبالعكس يمكن مثلا في مستقبل قريب للغاية تصفية القواعد العسكرية الاستعمارية في الوطن العربي ، تلك القواعد التي تستخدم في مساندة اسرائيل . ويلى ذلك تأميم البتروال العربي . اننا نتميز في البتروال بميزة نادرة وهي أن المستهلك الاساسي لانتاجنا منه هو أوروبا

٧ - الرأي العام الاسرائيلي ، ويجب الا نهمل اسرائيل من الداخل وما يجري فيها من صراعات . لقد حذرنا من الانخداع بالخلافات بين « المعتدلين » و « المتطرفين » من حكام اسرائيل . ولكن هذا لا يعني اننا ننفي تماما حقيقة وجود قوى تقدمية داخل اسرائيل مهما تكن ضعيفة . ان اسرائيل بعد عشرين عاما من قيامها تشكل مجتمعا له تناقضاته . ففيها استغلال استعماري يمكن ان يثير نزعات معادية للامبريالية . وفيها استغلال رأسمالي يمكن ان يفجر صراعا طبقيا . وفيها تمييز عنصري ضد اليهود الشرقيين يمكن ان يحدث انقسامات خطيرة . حقا ان الجو العنصري المعادي للعرب بصفة عامة يستغل في طمس معالم الصراع الطبقي . وكلنا نعلم ان فقراء البيض في جنوبي أفريقيا او الولايات المتحدة ليسوا في العادة اقل تعصبا من الاغنياء . وهذا ما يفسر ضعف مواقع القوى التقدمية في اسرائيل . ولكن هذا لا يعني انكار وجودها . ففي الولايات المتحدة وأفريقيا الجنوبية يوجد بيض يذهبون الى السجون لرفضهم الاجراءات العنصرية . وفي اسرائيل قوم يخاطرون بحياتهم لادانتهم العدوان واعلانهم شرعية المقاومة الفلسطينية . ولهذا لا بد من أن نقر ، ونقدر ، وموقف أي اسرائيلي يدين العدوان . وعلمنا أن نوضح بما لا يحتمل الشك أننا لا نعادي اليهود من حيث هم يهود ، واننا لا نعلم بقتل النساء أو الاطفال

أو بالقاء كل اسرائيل الى البحر . ان سياسة واسعة الافق واضحة العبارة ازاء الرأي العام الاسرائيلي يمكن ان تحدث أثرا مزدوجا : هجرة العناصر المتمسكة بالتفوق الاوروبي والتي لا تريد أن تعيش في سلام مع العرب ، وانما في سيطرة عليهم ، وكذلك الانفصال التدريجي لأولئك الذين لا يعنيه الا العيش في سلام عن القيادات العنصرية العدوانية المتطرفة .

وبعد ، ان موطن الضعف الاساسي في اسرائيل كمشروع للاستعمار الاستيطاني هو أنه جاء متأخرا مائة عام على الاقل ، وأنه اختار أرضا تعيش عليها أمة ذات حضارة عريقة ولذلك فهو لا بد ان ينهار . ولكن هذا القانون الموضوعي ، ككل القوانين الموضوعية التي تحكم المجتمع البشري ، يمثل اتجاها تاريخيا ويتوقف ظهور مفعوله في الواقع على نضال الجماهير صاحبة المصلحة في تحقيقه . ان النصر في المدى الطويل للعرب . ولكن طول هذا المدى يتوقف في المقام الاول على دور العرب ونضالهم المثابر ونجاحهم في الربط بين المعارك المباشرة والهدف البعيد . ان مفتاح الموقف في يدنا . والقضية كلها هي ان نحسن استخدامه .

د. اسماعيل صبري عبد الله

للمؤرخ البريطاني الشهير
أرنولد توينبي

الوحدة العربية آتية!

عرف المؤرخ البريطاني الشهير أرنولد توينبي بتعاطفه مع العرب وتأييده لقضاياهم . وان مواقفه من اسرائيل وعدوانيتها وعنصريتها لا تزال في الاذهان . وفي هذا الكتاب يتنبأ توينبي بان الوحدة العربية لن تستغرق من الزمن حتى تتحقق ما استغرقته الوحدة الالمانية والوحدة الايطالية ، ولن تنحرف مثلها ، بل ان سنة ١٩٧٤ هي الحد الاقصى (كما يقول توينبي) لاشراق نور هذه الوحدة العربية . ويتحدث المؤرخ البريطاني عن العقبات التي تعترض الوحدة العربية والوحدة الافريقية ، ولكنه يؤكد ان هذه العقبات ، ومنها مصالح بعض الافراد والاسر المستفيدة من التجزئة ، ستزول تدريجيا ، وان الوحدة العربية قادمة قريبا وويل لمن تعمييه مصلحته الموقته من ابنائها عن الحق ، وويل اكثر لمن يقف في طريقها ، معاداة للخير ، من غير ابنائها ... وفي هذا الكتاب الممتع تأملات تاريخية طافت بذهن توينبي اثناء رحلاته الثلاث الى بلدان افريقية ، شمالي وجنوبي الصحراء الكبرى ، وعرض دقيق لمشكلة السودان ونيجيريا ، وائتلاف الاسلام والمسيحية في الحبشة وتاريخ نهر النيل ، ووصف شيق لمنطقة « سد الجبل » في اعالي النيل وورشة « اسوان » و « الجزيرة » في السودان ، مع زيارة الى غزة ومخيمات اللاجئين الفلسطينيين واشادة بالخدمات التي قدمتها مصر لتلك المنطقة . كل ذلك في اسلوب شيق ونفس انساني رفيع وروح دعم وتأييد للنضال العربي